

الفصل الثالث

اهمال التأريخ الجاهلي واعادة تدوينه

من الأمور التي تثير الأسف ، تهاون المؤرخين في تدوين التأريخ الجاهلي ، ولا سيما القسم القديم منه ، الذي يبعد عن الإسلام قرناً فأكثر ، فإن هذا القسم منه ضعيف هزيل ، لا يصح أن نسميه تأريخاً ، بعيد في طبعه وفي مادته عن طبع التواريخ ومادتها .

لقد وفق المؤرخون العرب في كتابة تأريخ الإسلام توفيقاً كبيراً ، من حيث العناية بجمع الروايات والأخبار واستقصائها ، وفي رغبتهم في التمهيط . أما التأريخ الجاهلي ، فلم يظهروا مقدرة في تدوينه ، بل قصرُوا فيه تقصيراً ظاهراً . فاقصر علمهم فيه على الأمور القريبة من الإسلام ، على أنهم حتى في هذه الحقبة لم يجيدوا فيها لإجادة كافية ، ولم يظهروا فيها براعة ومهارة ، ولم يطوروا كل الأبواب أو الموضوعات التي تخص الجاهلية . فتركوا لنا فجوات وثغراً لم نتمكن من سدّها وردمها حتى الآن ، ولا سيما في تأريخ جزيرة العرب ، حيث نجد فراغاً واسعاً ، وهو أمر يدعو إلى التساؤل عن الأسباب التي دعت إلى حدوثه : هل كان الإسلام قد تعمّد طمس أخبار الجاهلية ؟ أو أن العرب عند ظهور الإسلام لم تكن لديهم كتب مدونة في تأريخهم ولا علم بأحوال أسلافهم ، وكانت الأسباب قد تقطعت بينهم وبين من تقدمهم ، فلم يكن لديهم ما يقولونه عن ماضيهم غير هذا الذي وعوه فتحدثوا به إلى الإسلاميين ، فوجد سبيله إلى الكتب ؟ أو أن العرب لم يكونوا يميلون إلى تدوين تواريخهم ، فلم يكونوا مثل

الروم أو الفرس يجمعون أخبارهم وأخبار من تقدم منهم وسلف ، فلما كان الإسلام ، وجاء زمن التدوين ، لم يجد أهل الأخبار أمامهم شيئاً غير هذا الذي روه وذكروه ، وكان من بقايا ما ترسب في ذاكرة المعمرين من أخبار .

لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير الى الإسلام ، فزعم ان رغبة الإسلام كانت قد انجذبت الى امتصاص كل ما يمت الى أيام الوثنية في الجزيرة العربية بصفة ، مستدلاً بحديث : (الإسلام يهدم ما قبله)^١ ، فدعا ذلك الى تشييط هم العلماء عن متابعة الدراسات المتصلة بالجاهلية ، والى محو آثار كل شيء يتفرع عن النظام القديم ، لم يميزوا بين ما يتعلق منه بالوثنية والأنصاب والأصنام ، وبين ما يتعلق بالحالة العامة كالثقافة والأدب والتاريخ . فعلوا ذلك كما فعل النصارى في أوروبا في أوائل القرن السادس للميلاد ، فكان من نتائجه ذهاب أخبار الجاهلية ، ونسيانها ، وابتداء التاريخ لدى المسلمين بعام الفيل^٢ . ولهذا (كان المؤرخون أو الأخباريون ، الذين يترتب عليهم تدوين أخبار الماضي وحفظ مفاخره ، من الذين ينظر اليهم شراً في المجتمع الإسلامي ، وخاصة في العهد الإسلامي الأول . أما مؤرخو العرب العظام ، فلم ينبغوا الا بعد تلك الفترة ، وحتى هؤلاء فإنهم صرفوا عنايتهم الى التاريخ الإسلامي ، ولم يدققوا فيما يخص الجاهلية . وبالإضافة الى ما سبق ، أصبح لكلمة مؤرخ (اخباري) معنى سيء بل أصبحت صفة تفيد نوعاً من الازدراء . وقد ألصقت هذه الصفة بابن الكلبي ، كما ألصقت بكل عالم تجرأ على البحث في تاريخ العرب قبل عام الفيل . لكن لم يهاجم أحد من المؤرخين بعنف كما هوجم ابن الكلبي . والراجح أن السبب في ذلك هو انصرافه لدراسة الأشياء التي قرر الإسلام طمسها ، أعني بذلك الديانات والطقوس الوثنية في بلاد العرب)^٣ .

١ مجلة الأبحاث (ص ١٨٩) ، السنة الـ ٣ ، الجزء الـ ٢ ، حزيران ١٩٥٠ ، الأكليل : مقدمة نبيه امين فارس ص (ب) ، دراسات عن المؤرخين العرب ، تعريب الدكتور حسين نصار ، تأليف (مارغليوث) (ص ٥٣ وما بعدها) .

٢ مقدمة نبيه امين فارس للجزء الثامن من الأكليل (ص ب) ، قال : (وقد يكون للحديث المنسوب الى النبي اثر في ذلك . فقد جاء في الحديث ان (الاسلام يهدم ما قبله) ، ولا بد ان عنى النبي في قوله هذا الديانات الوثنية الشائعة في الجزيرة قبيل ظهوره من عبادة الأصنام والأنصاب وغيرها . اما اتباعه ، فدفعتهم غيرتهم على تثبيت دعائم الدين الحنيف الى عدم التمييز بين الفسث والسمين ، فكادوا يقضون على جميع معالم الثقافة والأدب ... الخ) .

٣ الأبحاث ، الجزء المذكور (ص ١٨٩) .

ثم سبب آخر ، هو أن الإسلام ثورة على مجتمع قائم ثابت ، وعلى مثل تمسك بها أهل الجاهلية ، وعلى قوم كانوا قد تسلطوا وتحكموا وتجبروا بحكم العرف والعادات ، وككل ثورة تقع وكما يقع حتى الآن ، وسم الإسلام الجاهلية ، بكل منقصة ومثلية ، وحاول طمس كل أثر لها وكل ما كان فيها ، حتى ظهرت تلك الأيام على الصورة التي انتهت اليها عن «الجاهلية» وكان الناس فيها جهلة لم يكن عندهم شيء من علم في هذه الحياة يومئذ ، وكان عهدهم في هذا العالم لم يبدأ إلا ببدء الإسلام .

وجاءوا بدليل آخر في اثبات أن الإسلام كان له دخل في طمس معالم تأريخ الجاهلية ، إذ ذكروا أن الخليفة (عمر) سأل بعض الناس (أن يرووا بعض التجارب الجاهلية ، أو ينشدوا بعض الأشعار الجاهلية ، فكان جوابهم : لقد جب الله ذلك بالإسلام ، فلم الرجوع)^١ . فوجدوا في امتناعهم عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الجاهلية ، دلالة على كره الإسلام لرواية تأريخ الجاهلية وانتهاء ذلك الى طمس معالم ذلك التأريخ .

أما حديث (الإسلام يهدم ما قبله) ، فهو حديث لا علاقة له البتة بتأريخ الجاهلية ولا بهدم الجاهلية ، وقد استل من حديث طويل ورد في صحيح مسلم في (باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج) ، وبعد (باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية) ، وقد ورد جواباً عن أسئلة الصحابة عن أعمال منافية للإسلام ارتكبوها في الجاهلية ، هل يغفرها الله لهم ، أو تكتب عليهم سيئات يحاسبون عليها ؟ فقالوا : (يا رسول الله ، انؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟)^٢ . وقد ورد في صحيح مسلم بعد هذا الباب باب آخر بهذا المعنى ، هو (باب بيان حكم عمل الكافر اذا أسلم بعده) .

ولإعطاء رأي صحيح عن هذا الحديث ، أنقل الى القارئ نصه كما جاء في صحيح مسلم قال : (حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن شماسه المهري ، قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياقة الموت يبيكي طويلاً ، وحول

١ دراسات عن المؤرخين العرب (ص ٥٣) . وقد اقتطعت نص هذا الدليل من الترجمة العربية لكتاب المستشرق (مرغليوث) ، المسمى : دراسات عن المؤرخين العرب ، لعدم وجود النص الانكليزي لدي ، فانا اروييه على مسؤولية العرب وان كنت ارى ان في الترجمة وهما .

٢ صحيح مسلم (١ / ٧٧) .

وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بشرك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه ، فقال : إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . إني قد كنت على أطباق ثلاث ، لقد رأيته وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، مني ، ولا أحب إليّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار ، فلما جعل الله الإسلام في قلبي ، أثبت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يمينك فلأبأبعك ، فبسط يمينه . قال : فقبضت يدي ، قال مالك يا عمرو ؟ قال : قلت أردت أن اشترط . قال : تشترط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لي . قال : أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحسد أحب إليّ من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا أجلّ في عيني منه ، وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه لإجلاله له . ولو مت على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدري من حالي فيها ، فإذا أنا مت ، فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني ، فشنوا عليّ التراب شنأ ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وانظر ماذا أراجع به رسل ربي .

وبعد ، فآية علاقة إذن بين هذا الحديث وبين الحث على تهديم الجاهلية وإهمال التأريخ الجاهلي يا ترى ؟

وأما اتخاذهم نهى بعض الصحابة عن رواية الشعر الجاهلي أو أخبار الأيام دليلاً على كره الإسلام لإحياء ذكرى الجاهلية، ومحاولة طمس معالمها وتأريخها ، وحكمهم من ثم عليه بمساهمة في طمس تأريخ الجاهلية واطفائه له ، فإنه دليل بارد ليس في محله ، فإن الذين نهوا عن رواية الشعر الجاهلي أو رواية الأيام ، أو امتنعوا هم أنفسهم عن روايتها ، لم ينهوا ولم يمتنعوا عن روايتها مطلقاً ، أي عن رواية جميع أنواع الشعر الجاهلي أو أخبار كل الأيام التي وقعت في الجاهلية ، بل نهوا أو امتنعوا عن رواية بعض أبواب الشعر ، وبعض أخبار تلك الأيام ، لما كان يحدثه هذا النوع من الشعر أو يوقعه هذا الباب من رواية

الأخبار من شرّ في النفوس ومن فتن قد تجدد تلك العصبية الخبيثة التي حاربها الإسلام ، لتمزيقها الشمل ، وتفريقها الصفوف . « ومن ثم نهى الفاروق ، رضي الله عنه ، الناس بدياً أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في ذلك شتم الحي باليت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام . ومرّ عمر بحسان يوماً ، وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله ، فأخذ بأذنه ، وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ، فوالله لتعلم أنني كنت أنشد في هذا المسجد من خير منك ، فقال عمر : صدقت ، وانطلقى ^١ . ولم يأخذ عمر على حسان رواية ذلك الشعر في مسجد رسول الله إلا لأنه كان من ذلك الشعر المثير للنفوس المهيج للعواطف ، وانشاده في نظره يعيد الناس الى ما كانوا عليه من قتال قبل الإسلام . فلمصلحة العامة نهى بعض الصحابة عنه . ومع ذلك ، تساهل عمر مع حسان ، وتركه ينشد شعره ، بعد أن حاجّه حسان بما رأيت .

وهناك رواية أخرى تشرح لنا الأسباب التي حملت عمر على النهي عن رواية بعض الشعر الجاهلي ، وهي انه (قدم المدينة ، في خلافة الفاروق ، عبدالله بن الزبيرى وضرار بن الخطاب — وكانا شاعري قريش في الشرك — فترلا على أبي أحمد بن جحش ، وقالوا له : نحب أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فتشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا ، فأرسل اليه ، فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد : هذان أخواك ابن الزبيرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعها ما قالوا لك وقلت لهما . فقال ابن الزبيرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ، إن شعرك كان يحتل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : أفتبدآن ، أم أبداً ؟ قالوا : نبدأ نحن ، قال : ابتدئا . فأنشده حتى فار فصار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر ، فقص عليه قصتها وقصته . فقال له عمر : لن يذهب عنك بشيء إن شاء الله ، وأرسل من يردّهما ، وقال له عمر : لو لم تدركما إلا بمكة ، فأرددهما عليّ ... فلما كان بالروحاء ، قال ضرار لصاحبه :

١ شرح ديوان حسان بن ثابت الانصاري ، لعبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ١٩٢٩ (ص . س . م) .

يا ابن الزبيري ، أنا أعرف عمر وذبة عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأني به قد جاء وشكا اليه ما فعلنا ، فأرسل في آثارنا ، وقال لرسوله : إن لم تلحقها الا بمكة ، فارددهما عليّ ... فأربح بنا ترك العناء ، وأقم بنا مكاننا ، فإن كان الذي ظننت فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وإن أخطأ ظني ، فذلك الذي نحب . فقال ابن الزبيري : نعم ما رأيت . فأقاما بالروحاء ، فما كان الاّ كمرّ الطائر حتى وافاهما رسول عمر ، فردّهما اليه . فدعا لهما بحسان وعمر في جماعة من أصحاب رسول الله . فقال لحسان : أنشدكما مما قلت لهما فأنشدكما ، حتى فرغ مما قال لهما ، فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشدك في الخلا ، وأنشدتهما في المسأ ... وقال لهما عمر : إن شئما فأقيا ، وإن شئما فانصرفا . وقال لمن حضره : اني كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما اذ أبوا ، فاكثبوه ، واحتفظوا به . قال الراوي : فدوتوا ذلك عندهم . قال : ولقد أدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها اذا خافت بلاه .. ١ .

بل كان الرسول كما رأينا في خبر (حسان) ، وكما ذكر في أخبار أخرى يجلس وأصحابه يتناشدون الأشعار ، ويتذكرون أشياء من أمور الجاهلية ، وهو يسمع ويساهم معهم في الحديث ، وينشدهم شيئاً مما حفظه ٢ . ولم ينه عن رواية شعر ما إلا ما كان فيه فحش ، أو إساءة أو إثارة فتنة ، أما ما شابه ذلك ، لما كان يحدثه ذلك الشعر من أثر سيء في النفوس . لقد تمثل بشعر « أمية بن أبي الصلت » مع أنه كان من خصومه اللد ، وسمع الناس ينشدون شعره ، ولم يكره منه إلا ما كان منه في تحريض قريش بعد وقعة (بدر) على المسلمين وراثته من قتل منهم ٣ .

وقد كان (أبو بكر) ، وهو الخليفة الأول ، من حفظة الشعر الجاهلي ،

١ شرح ديوان حسان (ص . س . م)
٢ ابن سعد ، الطبقات (٢/١ ص ٩٥ وما بعدها) ، الاغانى (٧/٣ ، ١١٧) ،
(١٢٩/٤) ، (٢٤٣/٨) الامالى (٢٤١/١) ، المرزبانى (٢٠٣) ، الفائق
للزمخشري (٥٢/٣) ، ابن سعد ، (٣٧٦/٥) .
٣ الاغانى (١٢٢/٤) وما بعدها ، الفائق (٦٦٤/١) .

الراوين له ، المشهدين به^١ . وكان (عمر) من العالمين بذلك الشعر الحافظين له البصريين به^٢ . وكذلك كان شأن كثير من الصحابة . لم يذكر أحد أنهم تخرجوا من روايته وانشاده ، وأنهم تهيّبوا منه ، إلاّ ما ذكرته من إحجامهم عن رواية بعض منه ، وهو قليل جداً ، لأسباب ذكرتها ، وقد روه مع ذلك ودوّنوه .

لقد حرم الإسلام أشياء من الجاهلية ، وأقر أشياء أخرى نص عليها في الكتاب والسنة^٣ ، ولم يرد أنه حرم أقلام الجاهلية أو الشعر الجاهلي أو النثر الجاهلي أو أي أدب أو علم جاهلي ، ولم يصل إلى علمنا أنه أمر بهدم المباني الجاهلية وطمس معالمها ، حتى محجّات الأصنام بقيت على حالها ، خلا الأصنام والأوثان وما يتعلق بها من أمور مما كان من صميم الوثنية أو كانت له علاقة بإعادتها إلى الذهن مثل التصوير . ولم نسمع أنه أمر بإتلاف كتابات الجاهلية ، أو أنه نهى عن قراءتها والاستفادة منها ، أو أنه منع استعمال اللهجات الأخرى ، التي كان يستعملها الجاهليون ، أو أن علماء الإسلام منعوا رواية أخبار الجاهلية ، بل الذي نسمعه ونراه أن « ابن عباس » كان يستشهد بالشعر الجاهلي في تفسير القرآن ، وبقية الصحابة يروونه ويحفظونه ، وأن خلفاء بني أمية كانوا يدفعون الهدايا والجوائز لمن يروي لهم الشعر الجاهلي ، ونرى أنهم كانوا يقضون لياهم يرواية أخبار الجاهلية وحالتهم فيها، وما وقع لهم في تلك الأيام من نادر وطريرف، وقد سجل ما بقي منه في الذهن في كتب الأخبار والأدب ، يوم شرع الناس في التدوين .

وأما أنهم كانوا ينظرون الى (الأخباري) نظرة سيئة ، فيها شيء من ازدراء وعدم التقدير، فما كان ذلك لروايته أخبار الجاهلية واشتغاله بجمع تاريخها والتحدث عنها ، وما كانوا يريدون بلفظة (أخباري) راوي أخبار الجاهلية وحدها في أي يوم من أيام التأريخ الاسلامي، وإنما كان ذلك لإغراب الاخباريين في رواية الأخبار ومبالغتهم فيها مبالغة تجافي العقل ، وسردهم الإسرائيليّات والنصرانيّات والشعبيّات وغير ذلك من القصص المدونة في الكتب، وكذب بعضهم كذباً يخالف

١ ابن سعد (٥٧/٦) ، ابو بكر الصولي ، ادب الكتاب (ص ١٩٠)
٢ الاغانى (١٩٩/٨) ، خزانة الادب : للبغدادى (٢٩٢/٢) ، العقد الفريد (٩٣/٦)
وما بعدها) ، البيان والتبيين (٢٣٩/١) وما بعدها) ، الشعر والشعراء (٩٣/١)
٣ المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي (٣٩٣/١) .

أبسط قواعد المنطق، وما رُمي (ابن الكلبي) بالكذب أو نظر اليه نظرة ازدراء لكونه من رواة أخبار الجاهلية بل وثق في هذه الناحية وأخذ عنه دون ردّ أو اعتراض ، كما يتبين ذلك من اعتماد العلماء عليه في هذا الباب وإشارتهم اليه ، وإنما ضعف في أمور أخرى هي أمور إسلامية لا علاقة لها بالجاهلية ولا صلة لها بها البتة ، مدونة في كتب التفسير والحديث .

ولو كان الإسلام قد حث على طمس أخبار الجاهلية أو اطفاء ذكر الأصنام والأوثان ، لما كان في وسع (ابن الكلبي) ولا غيره التحدث عنها والإشارة إليها ، ولما أخذ العلماء عنه ورووا كتبه وتوارثوا كتاب (الأصنام) ، بل القرآن نفسه حجة في ردّ هذا الزعم ، ففيه ذكر لرؤوس أصنام العرب ، وفيه مفصل حياة أهل الجاهلية ومثلهم وما كانوا يقومون به ، ولو شرأ وباطلاً ، وروت كتب التفسير وكتب الحديث والسير والأخبار أوصاف بعض أصنام العرب وهياتها وشكل محجّاتها وأوقات الحج ، كما ذكرت ما أقر الإسلام من أمور كانت قائمة في الجاهلية وما حرم منها ، ولو كان الإسلام قد تعمد طمس الجاهلية والقضاء على معالمها ، لتحرج القرآن وتخرج المسلمون من الإشارة إليها ومن إحياء أسمائها وبعثها في ذاكرة الناشئين في الإسلام .

وقد تحدث (ابن النديم) في كتابه (الفهرست) ، في المقالة الثالثة التي خصصها (في أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث) ، عن (ابن الكلبي) وعن أبيه ، كما تحدث عن غيره من مشاهير العلماء من أمثال (عوانة ابن الحكم) و (ابن اسحق) صاحب السيرة ، و (أبي مخنف) و (الواقدي) و (الهيثم بن عدي) و (أبي البخري) و (المدائني) و (محمد بن حبيب) وغيرهم ممن ألف في أمور وقعت قبل الإسلام في أمور وأحداث إسلامية محضة ، وقد ضعف بعضهم ، مع أنهم لم يؤلفوا في أمور تخص الجاهلية ولا في أحداث وقعت قبل عام الفيل أو قبل الإسلام . وأطلقت عليهم لفظة (أخباري) أو (وكان أخبارياً) ، مع أنهم لم يكتبوا إلا في أخبار قريبة من الإسلام أو في أحداث إسلامية بحتة ، فلفظة (أخباري) إذن لم تكن قد علّمت بالشخص الذي تخصص برواية أخبار الجاهلية الواقعة قبل عام الفيل فقط ، بل قصد بها هؤلاء وكل من اشتغل برواية الأخبار مهما كانت صفاتها وعاداتها وطبيعتها، روى تاريخ ما قبل الفيل أو ما بعد الفيل الى الإسلام ، أو أخبار الإسلام .

والأخباري في عرف ذلك اليوم وقبل أن يتشر التأليف وتتصنف المعارف ، هو من يروي الأخبار ، تمييزاً له عن الآخرين الذين اشتغلوا بالنسب ، فعرف أحدهم بـ (النسابة) ، وقيل عن أحدهم (أحد النسابين) أو (وكان ناسباً)^١ ، أو بالتفسير أو برواية الشعر وما شاكل ذلك من معارف . فهو مؤرخ ذلك الزمن اذن ، ولهذا نرى لفظة (أخبار) بمعنى تأريخ ، ورد في « الفهرست » في أثناء الحديث عن عبيد بن شربة الجرهمي ومعاوية : فسأله (أي معاوية عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم)^٢ ، وورد عن (ابن دآب) وكان (عالماً بأخبار العرب وأشعارها)^٣ وذكر عن (عوانة بن الحكم) انه كان (راوية للأخبار عالماً بالشعر والنسب)^٤ . وورد عن (أبي اليقظان النسابة) أنه كان (عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب)^٥ . وورد مثل ذلك عن أشخاص آخرين هم في أوائل من اشتغل بالتأريخ عند المسلمين ، يخرجنا ذكرهم هنا عن حدود هذا الموضوع^٦ .

ويظهر من دراسة (الفهرست) لابن النديم والمؤلفات الأخرى ان العرب في صدر الإسلام لم يكونوا يطلقون لفظة (المؤرخ) على من يشتغل بالتأريخ، ذلك لأن التأريخ نفسه في ذلك العهد لم يكن قد تطور وبلغ الشكل الذي بلغه في أواخر أيام الأمويين وفي الدولة العباسية. بل كانوا يطلقون على المؤرخ (الأخباري) كما ذكرت ، لاشتغاله بالأخبار كائنه ما كانت أخبار ما قبل الإسلام أو أخبار الإسلام ، وكانوا يطلقون على الموضوع نفسه (الأخبار) . ولهذا نرى ان أكثرية المشتغلين بها ، أطلقوا على كتبهم : (الأخبار المتقدمة) و (أخبار الماضين) و (أخبار النبي) و (أخبار العرب) و (كتاب السير في الأخبار والأحداث) وأمثال ذلك، ولم يقولوا : (تأريخ المتقدمة) أو (تأريخ الماضين) أو (تأريخ العرب) أو (تأريخ الرسول) ، ويستعملون لفظة (سيرة) و (السير) في سير الأشخاص ، ولا سيما (سيرة الرسول) . وأما لفظة (تأريخ) ، فقد

١ الفهرست (ص ١٢٨) .

٢ الفهرست (ص ١٣٨) .

٣ الفهرست (ص ١٣٩) .

٤ الفهرست (ص ١٤٠) .

٥ الفهرست (ص ١٤٤) .

٦ يراجع الباب المسمى (المقالة الثالثة) : في اخبار الاخباريين والنسابين واصحاب الاحداث ... من كتاب الفهرست ، لابن النديم (ص ١٣٧) .

استعملت في عنوانه بعض الكتب المؤلفة في التاريخ ، فقد كان لـ (عوانة بن الحكم) المتوفى سنة (١٤٧ هـ) كتاب اسمه (كتاب التاريخ) كما كان له كتاب اسمه (كتاب سيرة معاوية وبني أمية)^١ . وكان للهيثم بن عدي المتوفى سنة (٢٠٧ هـ) كتاب يدعى (كتاب تاريخ العجم وبني أمية) و (كتاب تاريخ الأشراف) ، و (كتاب التاريخ على السنين)^٢ ، وكانت للمدائني المتوفى سنة (٢٢٥) للهجرة كتاب عنوانه : (تاريخ أعمار الخلفاء) وآخر اسمه (كتاب تاريخ الخلفاء) وثالث اسمه (أخبار الخلفاء الكبير)^٣ ، لا أستبعد أن يكون هو هذا الكتاب .

الا أن هذا الإطلاق لم يكن واسعاً كثير الاستعمال ، وفي استطاعتنا ذكر هذه الكتب وعدّها ، وما دامت الحال على هذا المنوال ، فليس من المعقول إطلاق لفظة (مؤرخ) و (المؤرخ) و (تاريخ) بصورة واسعة في هذا العهد ، وفي جملة العهد الذي عاش فيه (ابن الكلبي) ، ما دام العرف فيه إطلاق لفظة (أخبار) بمعنى (تاريخ) ، وإنما طغت لفظة (تاريخ) و (مؤرخ) في الأيام التي تلت هذا العهد ، ولا سيما أواخر القرن الثالث للهجرة فما بعده .

هذا من حيث استعمال لفظة (أخباري) . وأما من حيث إهمال التاريخ الجاهلي وصلة الإسلام به ، فقد ذكرت أنه لا علاقة للحديث المذكور بهدم الجاهلية أو بإهمال تاريخها ، وإنما الإهمال هو إهمال قديم ، يعود الى زمان طويل قبل الإسلام ، فعادة قلع المباني القديمة لاستخدام أنقاضها في مبان جديدة ، والاعتداء على الأطلال والآثار والقبور بحثاً عن الذهب والأحجار الكريمة والأشياء النفيسة الأخرى ، هي عادة قديمة جداً ، ربما رافقت الإنسان منذ يوم وجوده . وهي عادة لا تزال معروفة في كثير من بلدان الشرق الأوسط حتى اليوم ، بالرغم من وجود قوانين تحرم هذا الاعتداء وتمنع هذا التطاول . وقد كان من نتائجها تلف كثير من الآثار ، وذهاب معالمها ، فصارت نسياً منسياً . فتكبدت الآثار الجاهلية من أهل الجاهلية ، أي في الأيام السابقة للإسلام مثل ما تكبدته وتكبدته الآثار الجاهلية والإسلامية معاً في أيام الإسلاميين حتى اليوم^٤ .

١ الفهرست (ص ١٤٠) .

٢ الفهرست (ص ١٥١ وما بعدها) .

٣ الفهرست (ص ١٥٥) .

٤ راجع عن فتح القبور الجاهلية للحصول على ما فيها من كنوز ، الاكليل (١٤٣/٨) فما بعدها .

وأما موضوع إهمال الآثار وعدم توجيه عناية الحكومات نحوها ، لرعايتها وللمحافظة عليها من التعرض للسقوط والتلف والأضرار ونحو ذلك ، فإنه موضوع لم يدرك الناس أهميته إلاّ أخيراً ، ولم تشعر الحكومات بأنه واجب مهم من واجباتها إلاّ حديثاً ، ولذلك لا نستطيع أن نوجه اللوم الى القدامى لاهمالهم الآثار ولعدم اعتنائهم بالمحافظة عليها .

وكان من آثار هذا الجهل بأهمية الآثار أن أزيلت معالم أبنية وقصور، وحطمت تماثيل وكتابات، لغرض استعمالها في البناء ، وقد كان على مقربة من (سدوس)، أبنية قديمة يظن أنها من آثار حمير وأبنية التبابعة، وأن من جملتها شاخص كالمنارة، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها ، فهدها أهل سدوس ، لاختلاف بعض السياح من الافرنج اليها ملاحظة التداخل معهم^١. ومثل ذلك حدث في اليمن وفي مواضع أخرى من أمكنة الآثار .

وقد هدمت قرى ومدن في الجاهلية وفي الإسلام من أجل استعمال أنقاضها في بناء أبنية جديدة . ذكر (الهمداني) حصن (ذي مرمر) ، وهو من المواضع الجاهلية المهمة ، وكذلك (شبام سخيم) (يسخم) ، وبقيتا معروفين زمناً طويلاً بعده، ثم جاء أحد الأتراك واسمه (حسن باشا) فهدم حصن (ذي مرمر) لينشئ في أسفله مدينة جديدة ، أخذ معظم مواد بنائها من (شبام سخيم)^٢ . وذكر ان حكومة اليمن قامت بعد سنة (١٩٤٥ م) ببناء ثكنة لجنودها في المنطقة الشرقية من اليمن في (مأرب) على نمط الثكنة التي بناها الأتراك في صنعاء ، فهدموا أبنية جاهلية كانت لا تزال ظاهرة قائمة ، واستعملوا الحجارة الضخمة التي كانت مترامية على سطح الأرض ، وأزالوا بعض الجدر والأسوار وحيطان البيوت عند بناء تلك الثكنة ، فطمسوا بذلك بعض معالم تأريخ اليمن القديم^٣ ، وأسأؤوا بجهلهم هذا الى قيم الآثار اساءة لا تقدر في نظر عشاق التأريخ والباحثين في تأريخ العرب قبل الإسلام .

ويضاف الى ما تقدم عامل آخر ، هدم الآثار وقضى عليها بالجملة ،

١ الالوسي ، تاريخ نجد ، تحقيق الاستاذ محمد بهجت الاثرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ (ص ٢٨) .

٢ Beitrage, S., 18.

٣ Beitrage, S., 28.

وأعني به الحروب . وسوف نرى حروباً متوالية اكتسحت جميع مناطق العربية الجنوبية ، وأنت على مدنها ، اذ استعمل القادة سياسة حرق المدن والمواقع والمزارع ، وقتل السكان بالجملة فأدى ذلك الى اندثار الآثار وتشريد الناس وهربهم الى البوادي وتحول الأرضين الخصبية الى أرضين جرد ، حتى ضاعت بذلك معالم الحضارة القديمة ، فخسرنا من جراء ذلك علماً كثيراً ، وأسفاه . وهناك تفصيل آخر لا يمكن أن ينسب الى الإسلاميين ، بل يجب عزوه الى الجاهليين فالظاهر من رجوع الصحابة الى ذاكرتهم وإلى ذاكرة الشَّيْبَةِ الذين أدركوا الجاهلية في تذكّر أيامها وما كانوا عليه قبل الإسلام ، ومن جلب (معاوية بن أبي سفيان) المولع بسماع الأخبار له (عبيد بن شربة) ليقص عليه « الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبليد الألسنة، وأمر افراق الناس في البلاد »^١ ، ومن رجوع أهل الأخبار الى الأعراب لأخذ أخبار قبائلهم وأيامهم وأنسابهم وشعرهم وغير ذلك ، أن غالبية أهل الجاهلية لم تكن لهم كتب مدونة في تاريخهم ، ولم تكن عندهم عادة تدوين الحوادث وتسجيل ما يقع لهم في كتب وسجلات ، بل كانوا يتذكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم ، ويحفظون المهم من أمورهم مثل الشعر حفظاً . ولما كانت الذاكرة محدودة الطاقة ، لا تستطيع أن تحمل كل ما تحمل ، ضاع الكثير من الأخبار ، بتباعد الزمن ، وبوفاة شهود الحوادث ، ولم يبق بتوالي الأيام غير القليل منها . ومن هنا كان تعليل علماء العربية ضياع أكثر الشعر الجاهلي ، فقالوا : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصبح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولطت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح واطمأن العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثلوا الى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عنهم كثير)^٢ . وإذا كان هذا ما وقع للشعر مع مكانته عندهم وسهولة بقائه في الذاكرة بالقياس الى النثر ، وتعصب القبائل لشعر شعرائها ، فهل في استطاعتنا استثناء الأخبار ، من هذا الذي يحدث للشعر ؟

١ الفهرست (ص ١٣٨) .

٢ المزهر (٢ / ٤٧٤) .

بل ما لنا وللجاهلية ، ولتراجع تأريخ الاسلام نفسه ، خذ تأريخ آباء الرسول وطفولة الرسول الى يوم مبعثه ، بل حتى بعد مبعثه ، ثم خذ سير الصحابة وما وقع في صدر الإسلام من أحداث ، ترَ أن ما ورد من سيرة آباء الرسول وسيرة الرسول الى الهجرة ، مقتضباً بعض الاقتضاب ، وأن ما ذكر هو من الأمور التي تحفظها الذاكرة عادة ، وما فيها عدا ذلك مما وقع للرسول ، فغير موجود ، وترى اقتضاباً غللاً في سيرة الصحابة ، واضطراباً في تواريخ الحوادث ، واختلافاً بين الصحابة في ذلك . أما سبب ذلك فهو عدم تعود الناس اذ ذاك تسجيل أخبار الحوادث وما يقع لهم ، وعدم وجود مسجلين مع السرايا والغزوات والفتوح يكون واجبههم تسجيل أخبارها وتدوين وقائعها ، حتى ما سجل من أمر ديوان الجند والأنساب وأمثال ذلك ، لم يكن في نسخ عديدة ، فضاع أكثره ، ولم يصل الى الأخباريين لذلك يوم شرعوا في التدوين . وإذا كان هذا حال أخبار الاسلام ، وهي أمور على جانب خطير من الأهمية بالقياس الى المسلمين ، فهل يعقل بقاء أخبار الجاهلية كاملة الى زمن شروع الناس في التدوين في الإسلام ، وقد ضاعت قبل الإسلام بزمان ؟

لقد قلت فيما سلف إن الهمداني وغيره ممن عنوا بأخبار اليمن ، لم يعرفوا من تأريخ اليمن القديم إلا القليل ، ولم يعرفوا من أخبار دول اليمن القديمة شيئاً ، ولم يحفظوا من أسماء ملوكها إلا بعض الأسماء ، وقد حرف حتى هذا البعض ، أما معارفهم من معبودات أهل اليمن القديمة ، فصفر ، فلنسنا نجد في كتبهم إشارة ما الى عبادة (عشتر) ولا الى عبادة (أنبي) و (ذات صنم) و (نكرح) و (سين) و (حوكم) و (حكم) ، و (هوبس) ولا الى بقية المعبودات . نعم ، أشار (الهمداني) الى اسم إله من آلهة (همدان) هو (تالب) ، وكانت محجته في (ريم) (ريام) ، يقصدها الناس في ذلك الزمن للزيارة والتبرك ، ولكنه لم يعرف أنه كان إلهاً ، بل ظن أنه ملك من ملوك همدان ، فدعاه باسم (تالب) ، وزعم أنه ابن (شهران) ^١ . وجعل (المقه) ، وهو إله سبأ العظيم ، المقدم عندهم على جميع الأصنام ، اسم بناء من أبنية جن سليمان . وقد بُني على ما

١ الاكليل (١٧/١٠) .

زعمه يأمر سليمان^١ . وتحدث عن « رثام » فقال : « أما رثام ، فإنه بيت كان متنسك ، تنسك عنده ويحج اليه . وهو في رأس جبل أقوى من بلد همدان » ، ونسبه الى (رثام بن نهقان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان)^٢ . وقد ذكره (ابن اسحاق) و (ابن الكلبي) و (السهيلي) و (ياقوت الحموي) وغيرهم أيضاً^٣ وفي كل الذي ذكروه دلالة على أن ما روه لم يكن عن مصدر مدون ، وإنما هو روي عن أفواه الرجال . وأن تلك الأفواه قد نسيت كثيراً من الأصل ، فحاولت سدّ الثغر بالتقصص المذكور .

بل نخذ ما ذكره رجال هم أقدم من (ابن الكلبي) ومن (الهمداني) في الزمان ، وألصق منها عهداً بالجاهلية مثل (ابن عباس) و (عبيد بن شريفة) وغيرهما ، ترّ أن ما ذكره عنها لا يدل على أنها أخذت أخبارها من مورد مكتوب ومن كتب كانت موجودة ، ولا أعتقد أن (معاوية بن أبي سفيان) ، وهو نفسه ، من أدرك الجاهلية ، كانت به حاجة الى (عبيد) وأمثال (عبيد) من قوّل الأساطير ، وإلى الاستماع إلى أخبارهم ، لو كان عنده شيء مدون عن أمر الجاهلية ، ثم إنه لو كانت عند (ابن عباس) و (عبيد) وطلاب الشعر الجاهلي والأخبار مدونات ، لما لجأوا الى الذاكرة والى الرواة والأعراب يلتمسون منهم الأخبار والأشعار وأمور القبائل !

إنّ جهل أهل الأخبار بأصنام أهل اليمن القديمة التي ترد أسماؤها في كتابات المسند ، وذكرهم أسماء أصنام جديدة زعموا أنها كانت معبودة عند أهل اليمن لم يرد لها ذكر في كتابات المسند ، أشار (ابن الكلبي) وغيره إلى بعضها ، وأشاراتهم الى دخول اليهودية والنصرانية الى اليمن ، والى تهود (تبع) وهو في (يثرب) في طريقه الى اليمن ، وأخذ خبرين من أخبار يهود معه ، وأمره بتهديم معبد (رثام) ، بناء على إشارة الخبرين ، ثم ظهور جمل وألغاز في كتابات المسند تدل على التوحيد وعلى وقوع تغير وتطور في ديانات أهل اليمن ، مثل عبادة (الرحمن) وعبادة (ذو سموي) ، أي (ذو السماء) أو (صاحب

Detlef Nielsen, Der Sab. Gott Ilmukah, S., 2, D.H. Mueller, Burgen und Schloesser, Bd., 2 S., 972.

١

٢ الاكليل (٦٦/٨) ، (٨٢/٨) ، (طبعة الكرملية) .
٣ الاصنام (١٢) ، الاكليل (٨٢/٨) فما بعدها (طبعة الكرملية) .
٤ الاصنام (١٢) فما بعدها ، البلدان (٣٤٥/٤) .

السماء) ١ : إن كل هذه الأمور وأمثالها ، هي دلائل على حدوث تغير وتطور في عقليات أهل اليمن ، أثرت في معتقداتهم فجعلتهم ينسون آلهتهم القديمة ، بل ينتكرون لها ، ويتبعون بذلك عن ثقافتهم الوثنية القديمة ، ومثل هذا التطور والتغير لا بد أن يؤدي طبعاً الى نسيان الماضي والى الالتئام عنه بالتطور الجديد . وقد وقع هذا قبل الإسلام بزمان .

كان لدخول اليهودية والنصرانية في اليمن وفي أنحاء أخرى من جزيرة العرب ، دَخلٌ من غير شك في إعراض القوم عن ديانتهم الوثنية وعن ثقافتهم وآدابهم . أما اليهود فقد سعوا بعد دخولهم في اليمن لتهود ملوك اليمن وأقباؤها ونشر اليهودية فيها للهيمنة على هذه الأرضين ، وأخذوا ينشرون قواعد دينهم وأمور شريعتهم بينهم ، ويلذعون قصص التوراة ، وأعاجيب سليمان وجن سليمان ، وتمكنوا من اقناع بعض حكام اليمن بالتهود ، على نحو ما ستراه فيما بعد .

ووجدت النصرانية سبيلها الى اليمن كذلك من البحر والبر ، وسعت كاليهودية لتثبيت أقدامها هناك وفي سائر أنحاء جزيرة العرب ، ووجدت من سمع دعوتها هنا وهناك ، فتنصرت قبائل ، وشايعتها بعض المقاطعات والمدن ، وتعرضت الوثنية للنقد من رجال الديانتين ، واقتبس من دخل في اليهودية الثقافة اليهودية ، ومن دخل في النصرانية الثقافة النصرانية ، وأعرض عن ثقافته القديمة ، وفي جملتها الخط المسند ، خط الوثنية والوثنيين ، وصار عدد قرائه يتضائل بمرور الأيام . ومن يدري ؟ فلعل رجال الدين الجدد ، صاروا يعلمون الناس الكتابة بقلمهم الذي كانوا يكتبون به ، وهو قلم أسهل في الكتابة من المسند ، وخاصة على الورق والجلود والقراطيس . وقد يكون هذا سبباً من جملة أسباب تضائل عدد الكتابات المدونة في المسند ، في حقبة سأتحدث عنها فيما بعد .

وآية ذلك عثور المنقبين والسياح في مواضع من نجد وفي العروض ، وهي مواضع بعيدة عن اليمن ، على كتابات سبئية يعود تأريخ بعضها الى ما قبل الميلاد وتأريخ بعضها الى ما بعده^٢ ، ثم اختفاء آثار كتابات المسند من هذه

١ راجع النصوص :

"Zur Geschichte des Judentums im Jemen", in Alt-Orientalische Forschungen, I, 336.
"A Monotheistic Himjarite Inscription", by F.V. Winnet, Glasser 399, Winckler, Asmare, I, Ryk 203, Le Muséon, LII, P., 51ff. BOASOR 83 (1941), P., 22, CIH537, 538, 539, 543, 645, Res 4109, Bose 13, RES 4069, Stambul, 7608 Res 3904

The Qariya Ruin Field, Geographical Journal, June, 1949.

Sanger, The Arabian Peninsula, P., 139, Philby, Two notes from Central Arabia,

المواضع في العهود المتأخرة من الجاهلية القريبة من الإسلام ، مما يبعث على الظن أن أهل الجزيرة كانوا قد استبدلوا بذلك القلم قبيل الإسلام قلماً جديداً مشتقاً من الأقلام الإرمية الشمالية ، وذلك بانتشاره بينهم على أيدي المبشرين وبالاتجار مع عرب العراق ، ولا سيما سكان الحيرة والأنبار ، وهو القلم الذي كان يكتب به أهل مكة وأهل يثرب عند ظهور الإسلام . وبذلك شارك هذا القلم الجديد في موت القلم المسند واختفائه من هذه المواضع ، وبموته انقطعت صلات القوم بالثقافة العربية الجنوبية ، ثقافة القلم المسند .

ولا أستبعد أن يكون من بين رجال الدين من الديانتين أناس كانوا على قدر العلم والفهم بأمر التوراة والإنجيل وبالقصص الإسرائيل والنصراني وعلى شيء من الامام بالتأريخ . فقد كان من بينهم أناس هم من أصل رومي أو سرياني أو عبراني ، فليس من المستبعد أن يكون لهم حظ من العلم بالأمور المذكورة أخذوه من كتبهم المكتوبة بلغاتهم ومن دراساتهم لأمر الدين . ومثل هؤلاء لا بد أن يستشهدوا في مواعظهم في (مدرائهم) أو (كنائسهم) في الأماكن التي نزلوا بها من جزيرة العرب ، بشيء من قصص التوراة والكتب اليهودية والأناجيل . ودليل ذلك أن معظم القصص الواردة عن الرسل والأنبياء وعن انتشار اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب ، مصدره أناس من أهل الكتاب ، هم ممن أهل يثرب ، أي من يهود المدينة ، ومن أهل اليمن ، وهو قصص على دلالة على جهل فاضح بأمر اليهودية أو النصرانية ، يدل عموماً على أنه أخذ من أصل يرجع الى أهل الكتاب ، وقد غُطّي بقصص وأساطير ساذجة . وهو على بساطته وسذاجته يصلح إن صحت نسبته الى من نسب اليهم ، أن يكون موضوعاً للدراسة مهمة ، هي دراسة مقدار علم يهود جزيرة العرب ونصاراها في الجاهلية بأمر دينهم ومقدار جهلهم بأحكام اليهودية أو النصرانية في تلك الأرضين .

ونحن لا نجد في بقية جزيرة العرب تدويناً للتأريخ ، لعدم وجود حكومات منظمة كبيرة فيها ، ولسيادة النظام القبلي في أكثر أحيائها ، وإنما نجد فيها رواة يروون أخبار قبيلتهم وأموارها وعلاقاتها بالقبائل الأخرى ، وحوادثها وأيامها ، ورواة تخصصوا برواية الأنساب ، لما للنسب من أهمية في المجتمع القبلي ، ونجد جماعات تحفظ الشعر وما شاكل ذلك من أمور تخص القبيلة والنظام القبلي ، وكل ذلك رواية ، أي مشافهة ، لا كتابة . ومثل هذا النوع من التأريخ الشفوي

معرض كما قلت سابقاً لآفات عديدة ، أهمها تحكم العواطف القبلية على الرواة وتعرض الخبر للنسيان كلما تقدم العهد به في الذاكرة ، وكلما ابتعد به الزمن ، اذ تقل حماسة الناس له ، ويضعف تأثيره في العواطف ، وتفتر عندئذ همم الرواة عن حفظه وبذلك يتعرض للموت والاندثار ، ومن هنا اندثرت وضاعت أخبار الجاهلية البعيدة عن الإسلام . أما الجاهلية القريبة من الإسلام ، فقد بقي منها ما يشبه ذكريات الطفولة ، خلا الأمور التي عاصرت ظهوره ، فقد أدركها الصحابة ، فكان في امكانهم تذكرها وروايتها ، وانتقلت منهم الى من جاء بعدهم حتى وصلت الى المدونين .

ما ذكرته هو أهم أسباب إهمال التأريخ الجاهلي ، فجاء ذلك التأريخ لذلك ناقصاً فجاً على نحو ما نقرأه في المؤلفات العربية القديمة . أما تدوينه مجدداً ، وإعادة كتابته وتنظيمه وتنسيقه وسد الفجوات الواسعة فيه ، فقد تم على هذا النحو :

تدوين التأريخ الجاهلي :

للمستشرقين مجهود يقدر في تدوين التأريخ الجاهلي وفي كتابته بأسلوب حديث ، يعتمد على المقابلات والمطابقات ونقد الروايات والاستفادة من الموارد العربية والأعجمية . وقد أفادوا بما جاء عن العرب في التوراة وفي التلمود وفي الكتب اليهودية ، كما أفادوا بما جاء عن جزيرة العرب وسكانها في الكتابات الآشورية والبابلية ومن الموارد (الكلاسيكية) والمؤلفات النصرانية سريانية ويونانية ولاثينية ، فأضافوا كل ما تمكنوا الحصول عليه في هذا الباب الى ما ورد في الموارد الإسلامية عن الجاهليين ، فصححوا وقوّموا ، وسدّوا بهذه المواد بعض الثلم في التأريخ الجاهلي .

وعملهم في بحث الكتابات الجاهلية ونشرها ، مشكور مقدر ، فقد أعادوا الى الخط الذي كتبت به الحياة ، وجعلوه مقروءاً معروفاً ، وترجموا كثيراً من هذه النصوص الى لغاتهم ، وهي وثائق من الدرجة الأولى ، وعملوا على نشر النصوص بالسند وبالحروف اللاتينية أو العبرانية أو العربية في بعض الأحيان ، وعلى استخلاص ما جاء فيها من أمور متنوعة عن التأريخ العربي قبل الإسلام .

وقد أمكننا بفضل هذا المجهود المضني الحصول على أخبار دول وأقوام عربية لم يرد لها ذكر في الموارد الإسلامية، لأن أخبار تلك الدول وأولئك الأقوام كانت قد انقطعت وطمست قبل الإسلام ، فلم تبلغ أهل الأخبار .

وقد ساعدتهم في شرح الكتابات الجاهلية وتفسيرها علمهم بلغات عديدة ، مثل اللغة العبرانية والسريانية والبابلية ، فإن في هذه اللغات ألفاظاً ترد في تلك الكتابات بحكم تقاربها واشتراكها في هذه الثقافة المتقاربة التي نسميها (الرابطة السامية) ، كما أن فيها أفكاراً وآراء ترد عند المتكلمين بهذه اللغات ، ولهذا صار في الامكان فهم ما ورد في الكتابات الجاهلية بالاستعانة بتلك الأفكار والآراء .

وقد كان للسياح الذين جابوا مواضع متعددة من جزيرة العرب ، ولا سيما المنطقة الغربية والجنوبية منها ، فضل كبير في بعث الحياة في الكتابات الجاهلية . فقد أخذ أولئك السياح بعض كتابات ، كما أخذوا صور بعض آخر ، وبفضل تعاونهم مع العلماء البحريين باللغات الشرقية أمكن حل رموزها وبعث الحياة فيها بعد موت طويل .

وقد كانت أسفار أولئك السياح مغامرات ومجازفات ، إذ تعرضت حياة أكثرهم للخطر ، بسبب عدم استقرار الأمن اذ ذاك ، وبسبب سوء الأوضاع الصحية ، ولعدم وجود أماكن مريحة ، تناسب حياتهم التي تعودوها ، إلا أنهم لم يبالوا ذلك ولم يحفلوا به ، وتحابوا بمختلف الحيل للتغلب على تلك الصعوبات ولحسب ود رؤساء القبائل والحكام لتسهيل مهمتهم . وقد قضى نفر منهم نحبه في أسفاره هذه . وقد كانت أكثر أسفار هؤلاء الرواد أسفاراً فردية قام بها أفراد من العلماء ومن الضباط والمغامرين . والأسفار الفردية ، مهما كانت ، لا تأتي بالنتائج التي تنجم عن دراسات البعثات المتخصصة بمختلف الشؤون ، لذلك نتطلع الى اليوم الذي تتمكن فيه البعثات العلمية الكبيرة من اختراق آفاق بلاد العرب ، وتقديم نتائج بحوثها الى العلماء لتدوين تأريخ مرتب لجزيرة العرب قبل الإسلام ، ولا سيما الى البعثات العلمية العصرية التي تتألف من متخصصين من الناطقين بلغة هذه البلاد ، لأن هؤلاء أقدر من غيرهم على فهم اللهجات القديمة ومحتوياتها وروح ذلك التأريخ .

ونستطيع أن نعد السائح الدانماركي (كارستن نيبور) Carsten Niebuhr الذي

قام في سنة ١٧٦١ للميلاد برحلة الى جزيرة العرب ، أول رائد من رواد الغرب
ظهر في القرون الحديثة ، وصف بلاد العرب ، ولفت أنظار العلماء الى المسند
والرقم العربية^١ . وقد أثارت رحلته هذه همم العلماء والسياح ، فرحل من بعده
عدد منهم لا يتسع المقام لذكرهم جميعاً رحلات إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب
عادت على التأريخ العربي بفوائد جزيلة .

فزار الدكتور (سيتزن) Dr. Seetzen جنوبي بلاد العرب ، وتمكن من
نقش صور نصوص عربية جنوبية أرسلها الى أوروبا عام ١٨١٠ م وهذه النصوص
على قصرها وغلطها ، أفادت في تدوين تأريخ العرب قبل الإسلام افادة غير
مباشرة ، لأنها لفتت أنظار المستشرقين اليها والى دراسة التأريخ العربي القديم ،
حتى آل الأمر الى حل رموز تلك الكتابة ومعرفة حروفها^٢ .

وتمكن الرحالة السويسري (ليديك بركهارد) Johann Ludwig Burckhard
من القيام برحلة الى الحجاز ، فتزيا بزي مسلم اسمه (ابراهيم بن عبدالله) يريد
الحج وزيارة مسجد الرسول وقبره . وقد صحب الحجاج في حجهم ، ووصف
موسم الحج وصفاً دقيقاً ، وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية . وقد زار آثار
الأنباط وعاصمتهم (البتراء)^٣ .

Carsten Niebur, Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Laendern, ١
Kopenhagen, 1772-1837, in 2 Bande.

وهناك طبعة فرنسية وترجمة انكليزية ،

Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenhagen, 1773, Voyage en Arabie,
Amsterdam, 1774-80, R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell University
Press, 1954, P., 241.

Pfannmueller, S., 85, Seetzen, Travels in Yemen, 1810, Hommel, Explorations in ٢
Arabia, in Hilprecht, Explorations in Bible Land, P., 702, Seetzen, Fundgruben
des Orients, Vienna, 1811,

نشر مذكرات (Seetzen) التي أرسلها الى أوربة المستشرقون (Fleischer)
و (Kruse) و (Heinrich Mueller) في أربع مجلدات :
Reisen durch Syrien, Palaestina, Phoenizien, die Transjordan-Länder, Arabia
Petraea und Unter-Aegypten.

Johann Ludwig Burckhardt, Travels in Arabia, London, 1829, Deutsch, Weimar, ٣
1830, Burckhardt, Travels in Syria and Holy Land, London, 1822, Notes on the
Bedouins and Wahabys, 2Vols., London, 1830, in German, Weimar, 1831, S. M.
Zwemer, Arabia the Cradle of Islam, London, Explorations, P., 703.

وتمكن ضابط انكليزي يدعى James R. Wellsted من زيارة الأنحاء الجنوبية من جزيرة العرب ، ومن الظفر بصور نصوص عربية قديمة قصيرة، ومن استنساخ كتابة حصن (غراب) التي يرجع تأريخها الى سنة (٦٤٠) من تأريخ أهل اليمن ، وتوافق سنة ٥٢٥ للميلاد . وبفضل هذا الضابط عرف المستشرقون هذا النص^١ .

وأضاف الرحالة (هوتن) T.G. Hutton عدداً آخر من الكتابات الجاهلية سنة ١٨٣٥ الى ما كان قد عرف سابقاً . وجاء (كروتندن) Cruthenden سنة ١٨٣٨ م بنقوش أخرى جديدة . وكذلك (الدكتور مكل) Dr. Mackell الذي عاد بخمسة نصوص سبئية ، فتوسعت بذلك دوائر البحث قليلاً ، وتمكن العلماء بفضل هذه النقوش من حل رموز المسند^٢ .

وقد قام الصيدلي الفرنسي (توماس يوسف أرنو) (Thomas Joseph Arnaud) برحلة الى اليمن ، كانت موفقة جداً ، اذ تمكن بفضل علمه بالعقاقير ، من اكتساب صداقة المشايخ والزعماء . وبهذه الصداقة استطاع أن يتجول في بعض أنحاء اليمن ومدنها ، ولم يكن ذلك أمراً ميسوراً للغرباء ، فزار الجوف ووقف على خرائب (مأرب) ، ومكث في مدينة (صنعاء) أمداً ، وزار (صرواح) المدينة الأثرية القديمة ، واستنسخ ستة وخمسين نصاً كتابياً قديماً^٣ .

وكتب التوفيق لسائح أوروبسي آخر ، هو الضابط الانكليزي (Coghlan) ، فحصل في سنة ١٨٦٠ م على عشرين لوحاً برنزيّاً سليماً عثر عليها في أنقاض مدينة (عمران)^٤ . وقد أرشدت هذه الألواح المعدنية المستشرقين الى ناحية مهمة

١ Otto Weber, Arabien vor dem Islam, S., 10, Wellsted, Travels in Arabia, London, 1838, in 2 Vols., Narrative of a Journey to the Ruins of Nakeb el Hajar, in Journal Royal Geogr. Soc., VII, 20, in German, Halle, 1842, by Rodiger, Saenger, The Arabian Peninsula, p., 221, 241.

٢ Cruttenden C. J. Journy. of an Excursion to San'a the Capital of Yemen, Bombay, 1838, Journal of the Royal Geographical Society of London, Vol., III, 276-289, and in the Proceedings of the Bombay Geographical Society, 1838, PP., 39-55.

٣ Otto Weber, S., 10, Pfannmüller, S., 85, Hommel, Explorations, P., 704 Arnaud Relation d'un Voyage a Mareb, in Journal Asiatique, 1845, 211, 309, 1874, 3.

٤ (عمران) ، الاكليل (١٣/٨) ، ١٠٦ ، ١١٠ .

من نواحي الفن العربي القديم^١ .

وتوصل العلماء ، بعد جهود ، الى حل رموز هذه الكتابة العربية ، فعرفوا منها - وكان أغلبها قصيراً - انها تبحث في موضوعات متشابهة ، وانها مؤلفة من حروف أطلقوا عليها اسم (الكتابة الحميرية) أو (الحروف الحميرية) . وكان الرأي السائد بادىء بدء انها كذلك ، حتى تبين لهم ان هذه النصوص والنصوص التي جيء بها أخيراً لم تكن جميعها نصوصاً حميرية ، بل كان بعضها من النصوص المعينية ، وبعضها كتابات سبئية ترجع الى عهد دولة سبأ ، وبعضها بلهجات أخرى ، تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف . وهذه الكتابة ، هي الكتابة المسماة بـ (خط المسند) وبـ (القلم المسند) وبـ (المسند) في الموارد العربية .

عالج بعض العلماء ، ممن أولعوا بدراسة النقوش ، تلك النصوص ، وأعملوا رأيهم فيها حتى تمكن بعضهم من التوصل الى حل رموز بعضها ، مثل العالم (ولیم كسنيوس) (Wilhelm Gisenius) والعالم (رودكر) (E. Rodiger) والعالم (هاينرش ايوالد) (Heinrich Ewald) والعالم (فريسنل) (F. Fresnel) الذي نشر النصوص التي جاء بها ، وعددها ستة وخمسون نصاً بحروف عربية وحميرية ، في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) سنة ١٨٤٥ م ، إلا أن نشره لم يكن متقناً اتقاناً تاماً . وجاء القسيس (أرنست أوسيندر) (Ernest Osiander) فآتم ما كان قد بدىء به^٢ . ولم يتمكن العلماء الذين عالجوا مشكلة الكتابة العربية الجنوبية من معرفة الحروف كلها ، ولذلك لم يستطيعوا قراءة أكثر النصوص التي جيء بها الى أوروبا وفهم معناها ، كما ان النصوص المقروءة لم تكن مضبوطة ضبطاً تاماً ، فاستطاع هذا العالم بجهوده العظيمة قراءة كل النصوص التي جاء بها السياح والعلماء ، وتعيين أشكال الحروف ، ووضع أسس متينة لدراسة عرفت بعد ذلك باسم (الدراسة العربية الجنوبية) وقد استعان العلماء على فهم هذه الكتابات بالدراسات اللغوية السامية مثل العبرانية ، وباللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وباللهجات اليابانية ، وبالمعلومات الجغرافية المدونة في الكتب

^١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

^٢ Pfannmueller, S., 85, Fulgence Fresnel, in Journal Asiatique, 111, Series, V, 521, 1838, Lettres Sur Hist. des Arabes Avant l'Islamisme, 1853, Fresnel, Recherches sur les Inscriptions Himyariques de San'a, Kha'riba Marib in, Journal Asiatique, IV, Serie, Tom, 6, P., 169-1845.

العربية ، وبأسماء الملوك والأشخاص الذين وردت أسماءهم في المؤلفات العربية^١ . وترسم المستشرق (ليفي) (M. A. Levy) أثر (اوسيندر) ، وتتبع أسلوبه في البحث، وحاول استخراج مادة تاريخية من هذه النصوص التي ترجمت وعرفت. وقد تمكن من نشر ما تركه (أسيندر) من نصوص عاجلته المنية قبل أن يوفق لاجراجها الى الناس ، فتمكن (ليفي) من تنسيقها وتهذيبها ، وطبعها وعرضها على العلماء^٢ .

وفاق (يوسف هاليفي) (Joseph Halévy) ، وهو يهودي فرنسي ، كل من تقدمه بكثرة ما جاء به الى أوروبا من نقوش ، وبسعة علمه في تاريخ اليمن ، وبدراسة الكتابات العربية الجنوبية . دخل هذا الفرنسي اليمن في هيئة يهودي متسول من أهل القدس ، ليتجنب بذلك ما يتعرض له الغرباء وأهل البلاد المسلمون على السواء من أخطار رجال القبائل وقطاع الطرق الذين لا يمسّون أهل الذمة بسوء .

وقد استطاع ، بهذه الطريقة ، التطواف في أرجاء اليمن ، حتى بلغ أعاليها مثل (نجران) ، وأعالي الجوف وهي المنطقة التي كان فيها (المعينون) . ووصل في تطوافه الى حدود (مأرب) عاصمة سبأ والى (صرواح) ، وهو بهذا أول أوروبي زار (نجران)^٣ . ولما عاد الى أوروبا ، أحضر معه (٦٨٦) نقشاً جمعها من مواضع مختلفة من اليمن .

وفي سنة ١٨٧٢ - ١٨٧٤ م نشر هذا العالم في الجريدة الآسيوية (Journal Asiatique) ما كتبه في وصف رحلته الى بلاد اليمن ، وقد ضمن كتاباته وصفاً للأماكن التي حل بها والطرق التي اجتازها ، وترجمة لـ (٦٨٦) نصاً ، وهي النصوص التي كان قد جاء بها أو استنسخها من أصولها ، ونشر بحثاً علمياً وانتقاداً قيماً للأبحاث اللغوية والتراجم والنصوص التي سبق أن نشرها العلماء من قبله^٤ .

١ Pfannmueller, S., 85, Weber, S., 10.

٢ Pfannmueller, S., 85.

٣ Halévy, in, Bulletin de la Société de Géographie, 1873, et 1877, Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asiatique, Series O, Vol., XIX, Joseph Halévy, in Journal Asiatique, 1874, Pfannmueller, S., 86, Explorations, P., 709.

٤ Pfannmueller, S., 85.

وكان ممن ذهب الى اليمن شاب نمساوي اسمه (سيكفريد لنكر) (Siegfried Langer) ، وقد استطاع تصوير بعض النقوش واستنساخ قسم من الكتابات في عام ١٨٨٢ م . غير أن القدر عاجله اذ قتل هناك ، ففقد البحث في تاريخ اليمن بوفاته عضواً نشيطاً . غير أن نمساوياً آخر عوّض عن خسارة ذلك الشاب ، وهو العالم (ادورد كلاسر) (Eduard Glaser) . وقد قام بأربع رحلات الى اليمن ، ورجع بعدد كبير من النصوص والنقوش وبمادة غزيرة من المعلومات^١ .

بدأ الرحلة الأولى (في اكتوبر من سنة ١٨٨٢ م) ، وختّمها في شهر آذار (مارس) من سنة ١٨٨٤ م ، وكانت الحالة السياسية في ذلك الزمن مضطربة ، والأوضاع غير مساعدة ، والفوضى عامة في بلاد اليمن ، ولم يكن للحكومة على القبائل من سلطان . ومع ذلك تمكن من الحصول على (٢٥٠) نقشاً رجع بها الى أوروبا . أما الرحلة الثانية ، فكانت في نيسان سنة ١٨٨٥ م ودامت حتى فبراير سنة ١٨٨٦ ، وقد زار في أثنائها المناطق الجنوبية الشرقية والمنطقة الجنوبية الممتدة من جنوب (صنعاء) حتى مدينة (عدن) . وقد تمكن من جمع معلومات مهمة عن طبغرافية البلاد وأماكنها الأثرية ، وعاد بنصوص معينة مهمة دخلت في ممتلكات المتحف البريطاني^٢ .

وقام بالرحلة الثالثة في سنة ١٨٨٧ م ، ومكث في اليمن الى سنة ١٨٨٨ م ، وكانت رحلته هذه موفقة جداً ، اذ حصل على آثار ونقوش كتابية كانت على جانب عظيم من الأهمية ، منها أربعمئة نص أخذها من مدينة (مأرب) عاصمة (سبأ) ، ومن هذه النصوص نصان عن تصدع سدّ مأرب يرجع عهدهما الى زمن قريب من ميلاد الرسول ، ونصوص أخرى من مدينة (صرواح) يرجع عهدهما الى العصر السبئي ، وهي ذات أهمية كبيرة في تدوين تاريخ بلاد العرب الجنوبية^٣ .

وكانت رحلته الرابعة ، وهي الأخيرة ، في سنة ١٨٩٢ م ، وكانت موفقة

١ O'leary, P., 221, Explorations, P., 722, Pfannmueller, P., 83, Weber S. 11

٢ Weber, S., 11.

٣ Explorations, P., 721, Mittheilungen der Vorder-Asiatischen Gesellschaft, Berlin, ٣
Beilage der Allgemeinen Zeitung, 1888, Nos, 293, f., Eduard Glaser, Reise nach Ma'rib.

جداً كذلك . اتبع فيها أسلوباً جديداً في الحصول على صور النصوص ، اذ استعان بالأعراب الذين فرقهم في مختلف الجهات التي لم يسبقه أحد من الأوروبيين الى زيارتها، بعد أن علمهم مختلف الطرق في الحصول على تلك النصوص بطريق الورق الذي يتأثر بالضوء وبطريقة القوالب الجبسية ويطرق أخرى . وقد تمكن بهذا الأسلوب الجديد من الظفر بصور مضبوطة بعض الضبط للكتابات القديمة التي لم يكن بوسعها الذهاب الى أماكنها واستنساخها بنفسه، وبها أيضاً تمكن من تصحيح أغلاط الصور التي أخذها (هاليفي) عن النقوش الأصلية ، ومن الحصول على زهاء مئة نص قتباني أخذها من منطقة خرائب (مأرب) . وفي متحف (فينا) قسم من الأحجار المكتوبة التي كان هذا العالم قد جلبها معه في المرة الأخيرة إلى أوروبا^١ .

وقد زار المستشرق (جورج أغسطس والين George Augustus Wallin) سنة ١٨٤٥ م نجداً ودون رحلته اليها^٢ . وزار الحجاز المستشرق الهولندي الشهير (سنوك هرغونيه Snouk Hurgtionje) ، فكتب في أحوال مكة ووصف الحياة في الحجاز وموسم الحج . وكان قد ذهب اليه سنة ١٨٨٥ - ١٨٨٦ م وهو من العلماء المدققين^٣ .

وقد زار الحجاز (السير ريشارد برتن) (Sir Richard Burton) متكرراً بزي مسلم سمى نفسه (عبدالله) زار الحرمين وكتب وصف رحلته هذه^٤ .

وتوغلت (حنة بلنت) (Anne Blunt) سنة ١٨٧٩ م في شمال بلاد العرب حتى بلغت أرض نجد ، وكانت مولعة بدراسة أحوال الحيول العربية^٥ . واخترق الرحالة الانكليزي (تشارلس دوتي) (Charlis M. Doughty) الصحارى العربية وشمال بلاد العرب ، ووضع كتاباً مهماً وصف فيه أسفاره في بلاد العرب

١ Weber, S., 12, Pfannmueller, S., 86.

٢ Ency. Brita., Vol., 2, P., 171, Explorations, P., 705.,

٣ Ency. Brita., Vol., 2, P., 170, Mekka, den Haag, 1888, Explorations, P. 720.

٤ Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to El-Medina and Meccah, London, 1857, in two Vols.

٥ Lady Anne Blunt, A Pilgrimage to Najd, 2 Vols, London, 1883, The Bedouins of the Euphrates, London, 1879.

الصحراوية^١ . وقد اهتم خاصة بدراسة النواحي (الجيولوجية) والجغرافية للبلاد العربية ، ودون ملاحظاته عن الظواهر الجوية وتغيرات الجو ولم يغفل عن دراسة طبائع البدو وحياتهم الاجتماعية وطرق تفكيرهم وعقائدهم . وقد طبع كتابه ، في سنة ١٨٨٨ ، وترجم الى بعض اللغات الأوروبية لأهميته^٢ .

ويعد هذا الرحالة من المتعصبين على الإسلام ، وقد يكون لهذا التعصب سبب ، فقد لاقى من الأعراب وأهل المدن شيئاً كثيراً أثر في نفسه ، فصار يتحامل على المسلمين ويقسو في حكمه على الرسول، إلا أنه لم يتمكن مع ذلك من الغض من قيمة المبادئ الأخلاقية التي يتحلى بها . وما لاحظته على البدو ، عدم اهتمامهم بعبادتهم كالصلوات الخمس والصوم ، كما لاحظ من جهة أخرى ان الخوف من وجود إله يكاد يكون أعمق أثراً في نفوس هؤلاء من الحضر . ولاحظ أيضاً أن جذور الوثنية القديمة لا تزال راسخة حتى الآن في نفوس الأعراب وأكثر سكان القرى والمدن ، وقد أظهر هذا الرحالة ميلاً عظيماً للدراسة حياة البدو وطرق معيشتهم ، وهو يتشوق الى الصحراء ويحن إليها حين البدو ، ويتجلى ذلك العطف في رحلته التي تعد من روائع الأدب الانكليزي^٣ .

ورحل (ثيودور بنت) (Theodore Bent) وزوجته الى البحرين وجنوب الجزيرة العربية فزارا الأماكن الأثرية ، وتحدثا عن بعض الخرائب الجاهلية والكتابات . وكانت زيارتهما للبحرين سنة ١٨٨٩ م . أما زيارتهما لمسقط وعمان وحضرموت ، فكانت في هذه السنة ثم في سنين بعدها^٤ .

وتزيا الرحالة الألماني (هاينرش فون مالتزن) (Heinrich von Maltzen) بزي حاج مغربي، وكان قد زار المغرب وتعلم لهجة سكانه ، وذهب إلى الحجاز وتظاهر هناك بأنه منهم ، وبعد عودته من الحج وضع رحلته^٥ .

١ Travels in Arabia Deserta, Cambridge, 1888, in 2 Vols.

٢ Charlis M. Doughty, Die Offenbarung Arabiens, Paul List Verlag, Leipzig, 1937.

٣ Passage from Arabia Deserta, Selected by, Edward Garnett, London, 1949, Pfannmueller, S., 54.

٤ Th. Bent and Mrs Bent, Southern Arabia Sudan and Socotra, London, 1900.

٥ von Maltzen, Meine Wallfahrt nach Mekka, Leipzig, 1865, Bd., 1, 2, " bearbeitet von F. Gansberg, Braunschweig, 1919, Reise in Arabien, Braunschweig, 1873, Bd., 1, 2, Arabica, Parts 4 und 5, Leiden, 1896-1898.

ومن الجوّابين العلماء (يوليوس أويتنك Julius Euting) ، وقد اهتم خاصة بدراسة أحوال البدو ، وكتب في الوهايين والحركة الوهاية^١ .

ومنهم الرحالة الجيوكوسلوفاكّي الأصل (ألويس موسل) (Alois Musil) ، زار (العربية الحجرية) وكتب عدة كتب في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الأوسط وتدمر ونجد ، ووضع في نهاية كل كتاب من كتبه فصلاً علمية قيّمة فيها تحقيق تاريخي جليل^٢ . وثمة جوابون آخرون لا بد من ذكرهم مثل (جوسن) (Antonine Jaussen)^٣ و (برونوف) (R. E. Brünnow)^٤ و (شارلس هوبر) (Charles Huber)^٥ و (وبرترام توماس) الشاب الانكليزي المستشرق الذي استطاع في شباط سنة ١٩٢٩ م أن يخترق لأول مرة (الربع الخالي) فكشف بذلك بقعة من أكبر البقاع المجهولة في بلاد العرب^٦ . ويضارعه في مخاطراته هذه (فليبي) الذي أسلم فأطلق على نفسه (الحاج عبدالله فليبي) . وقد ألّف هذا الانكليزي المستعرب عدة كتب بالانكليزية وصف فيها أسفاره في بلاد العرب ، وقد تهيأ له من الفرص ما لم يتهيأ لأوروبي آخر ، إذ كان من الملازمين للملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود والمقربين اليه . وقد مكث الرحالة الألماني (راتجن) (C. Rathjens) بضع سنين في اليمن وكتب عنها ، وجلب معه عدة كتابات يمانية قديمة الى ألمانيا وضعت في (متحف الشعوب) في مدينة (هامبرغ)^٧ .

١ Julius Euting, Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien, Lelden, 1896-1914, Bd. I.

٢ The Northern Hegas, New York, 1926, Arabia Deserta, New York, 1927, Palmyrena, New York, 1928, Northern Negd, New York, 1928, The Middle Euphrates, New York, 1927, In the Arabian Desert, New York, 1930.

٣ Antonine Jausen, Countems des Arabes au Pays de Moab, Paris, 1908, Pfannmueller, ٣ S., 29, Hittl, P. 7.

٤ R.E. Bruennow und A.V. D omaszewski, Die Provincia Arabia, Strassburg, 1904-1909, 3 Baende.

٥ Charles Huber, Voyage dans l'Arable Centrale, Paris, 1885, Journal d'un Voyage en Arable, (1883-1884, Paris, 1891.

٦ Arabia Felix, Across The Empty Quarter of Arabia, New York, 1932.

٧ The Empty Quarter, 1988, The Background of Islam, 1947,

وكتب كتباً أخرى

٧ C. Rathjens und H. von Wissmann, Suedarablen-Reise, 3 Bd., Hamburg, 1934, Rathjens und von Wissmann, "Sanaa, Eine Stuedarabische Stadtlanschaft" in, Zeltschrift der Gesellsch. f. Erdk. zu Berlin, Nos., 9-10, S., 329. ff.

وقامت بعثة أمريكية عرفت بـ (المؤسسة الأمريكية لدراسة الانسان)
(The American Foundation for the Study of Man) برئاسة (وندل فيليبس)
(Wendell Phillips) ، وضمت بعض العلماء الواقفين على تأريخ اليمن القديم مثل
(البرايت) (Dr. W. F. Albright) أستاذ الآثار في جامعة (جون هوبكنس)
بالولايات المتحدة ، وآخرين في مختلف الموضوعات وذلك ما بين سنتي ١٩٥٠ -
١٩٥٢ م بأعمال الحفر في منطقة (عدن) واليمن . وبالرغم من النهاية المحزنة
التي انتهت أعمال البعثة إليها ، فقد تمكنت من الحصول على نتائج حسنة جديدة
لم تكن معروفة عن تأريخ مملكة قتيبان وسبأ ، وعادت ببعض الآثار^١ .

وكانت في جملة ما درسته هذه البعثة نظم الري في مملكة (قتيبان) . ودراسة
موضع (هجر بن حميد) ، حيث عثرت على فخار ومواد أخرى يعود عهدها ،
كما يرى خبراء البعثة الى ألفي سنة . ودراسة أخرى لمدينة (تمنه) عاصمة (قتيبان)
ولمعبدها الشهير ولبقايا مقبرتها ، وعثرت على كتابات جديدة ، وقدّرت سقوط
تلك العاصمة وخرابها بسنة (٢٥) قبل الميلاد^٢ .

وقامت هذه البعثة في سنة (١٩٥٢) و (١٩٥٣) للميلاد بأعمال الحفر في (ظفار)
بعمان . ثم عادت فنقبت في هذه المنطقة في ابتداء سنة (١٩٦٠) م ، حيث كشفت
عن بعض الخفایا من تأريخ هذه المنطقة التابعة لسلطنة عمان^٣ .

وقامت في سنة (١٩٦٢) م بعثة أمريكية من المستشرقين الأميركيين ، لا علاقة
لها بالبعثة المتقدمة بزيارة مواضع من المملكة العربية السعودية ، فزارت (سكاكة)
'سككه' والجوف وتيما ومدائن صالح والعلا وتبوك ، وظفرت بسمادج من
فخار قديم ، ونقلت صوراً لكتابات ثمودية ونبطية ، أهمها الكتابات التي وجدت
في قمة (جبل غنيم) الذي يقع على مسافة ثمانية أميال من جنوب (تباء) .

١ وقد ترجم كتاب (وندل فيليبس) ونشر بعنوان : (كنوز مدينة بلقيس) ترجمة
(عمر الديراوي) سنة ١٩٦١ ، وفي الكتاب ، ويا للأسف أغلاط كثيرة في تدوين
الاعلام ، زيد بن علي عنان : تأريخ اليمن القديم (وقد اولاني ثقته - حفظه
الله - حين ارسلني مشرفاً على اعمال الحفر بمأرب الذي قامت به البعثة
الاميركية المشؤومة برئاسة وندل فيليبس ، ذلك اللص النصاب
الذي جنى على دعائم محرم بلقيس الخ) ، المقدمة ،

Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241.

Saenger, The Arabian Peninsula, P., 241. f. ٢

BASOR., Num. 159, (1960), PP., 14. ٣

وهي ، كما تقول البعثة ، من أقدم الكتابات التي عثر عليها حتى الآن في العربية الشمالية . وكان (فليبي) قد استنسخها بيده ، وتبين بعد مقارنة ما استنسخه فليبي بالصور (الفوتوغرافية) التي أخذتها البعثة أن في نقل (فليبي) أوهاماً عديدة . وفي جملة ما عثر عليه البعثة صور نحتت على أحجار تمثل آلهة عربية قديمة^١ .

وهناك طائفة أخرى من المستشرقين خدمت التأريخ العربي قبل الإسلام خدمة جليلة مهمة ، هي طائفة أساتذة الجامعات وأصحاب التتبع والبحوث ، استفادت من بحوث السياح ومن الموارد المذكورة التي تحدثت عنها عن مصادر التأريخ الجاهلي ، ثم غربلتها ونقدتها وألفت منها مادة جديدة لتأريخ الجاهلية . ومن هؤلاء المستشرق : (بركر) (Berger) مؤلف كتاب (جزيرة العرب قبل محمد في الآثار) (L'Arabie Avant Mahomet d'après les Inscriptions), Paris 1885. ، والمستشرق (كوسان دي برسفال) العلامة الفرنسي صاحب كتاب (تأريخ العرب قبل الإسلام) (Essai sur l'Histoire des Arabes Avant l'Islamisme)^٢ وهو من الكتب المفيدة . وقد جاء صاحبه بنتائج مهمة وبآراء صائبة في بعض الموضوعات ، غير أن الكتاب أصبح قديماً ، وفيه نواقص كثيرة ، وهو لا يتفق اليوم مع أساليب البحث الحديثة . وقد اعتمد مؤلفه على المصادر العربية ولا سيما كتاب (الأغاني) وعلى مصادر أخرى كانت معروفة في ذلك الوقت ، غير أنه لم يتمكن من الوصول الى مصادر كثيرة أخرى مهمة ، لأنها لم تكن في متناول يده في ذلك العهد .

والمستشرق الإيطالي (كيتاني) (L. Caetani) بحث جيد في تأريخ العرب قبل الإسلام ، جعله مقدمة لتأريخ الإسلام^٣ . وهو على جهده في محاولة التعمق في فهم تأريخ الجاهلية والإسلام ، لا يخلو من هفوات ومن تغلب العاطفة عليه ، ولا سيما في القسم الخاص بتأريخ الإسلام .

ومن كتب في حياة العرب قبل الإسلام المستشرق (أوليري (Delacy O'Leary) ،

١ BASOR., Num 168, 1962, P., 9.

٢ Paris, 1847-1848, Reprinted, 1902, in 3 Vols.

٣ Annali Dell'Islam, by Leone Caetani, Principe di Teano, Vol., I, Milano, 1905, Studi di Storia Orientale, Milano, 1911.

صاحب كتاب (البلاد العربية قبل محمد)^١ . وقد تحدث فيه عن صلوات العرب بالمصريين فالآشوريين الى زمن ظهور الإسلام ، وهو لا يخلو أيضاً من هفوات . وقد صار قديماً . والمستشرق (تشارلس فورستر) (Charles Forster) ، وله كتاب مفيد (وان أصبح قديماً جداً) في تأريخ بلاد العرب القديمة وجغرافيتها ويستند في أكثر أبحاثه كأغلب معاصريه الى نظريات التوراة^٢ .

وقد كتب المستشرق الألماني (أوتو وير) (Otto Weber) رسالة صغيرة في حالة العرب قبل الإسلام^٣ .

وقد كتب المستشرقون الذين عنوانوا بالسيرة النبوية وبالتأريخ الإسلامي عامة فصولاً تمهيدية في حالة العرب قبل الإسلام ، تعرضوا فيها لمختلف النواحي التاريخية ، وهي مفيدة للاطلاع على أحوال الجاهلية .

وهناك من كتب في موضوع خاص من التأريخ الجاهلي كالمستشرق (رينه دوسو) ، فقد وضع كتاباً في (العرب في الشام قبل الإسلام)^٤ . والمستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) ، وله كتاب في (تأريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين)^٥ ، وكتاب آخر في (أمراء غسان)^٦ .

وللمستشرق (روثشتاين) (Rothstein) كتاب (تأريخ أسرة اللخمين في الحيرة)^٧ ، وهو من الكتب المهمة التي جمعت شيئاً كثيراً من أخبار هذه الأسرة . وقد استعان مؤلفه بالمصادر العربية والسريانية واليونانية ، ولا يخلو على كل حال من الضعف في بعض مواضعه .

ويضاف الى كل ذلك ما كتبه بعض المستشرقين في الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام ، وأهمها كتاب (بركن) (Bergmann) في أديان العرب في الجاهلية^٨ ، والفصل الذي كتبه المستشرق (أرنست أسيندر) (Ernst Osiander)

١ O'Leary, Arabia, before Muhammed, London, 1927.

٢ Charles Forster, The Historical Geography of Arabia, London, MDCCCXLIV, 2 Vols.

٣ Arabien vor dem Islam, 1904.

٤ Les Arabes avant l'Islam en Syrie.

٥ Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden, 1879.

٦ Die Ghassanidischen Fuersten aus dem Hause Gafna's, Berlin, 1887.

٧ Die Dynastie der Lachmiden in al-Hira, Berlin, 1899.

٨ De Religione Arabum anteislamica.

في ديانة العرب قبل الإسلام ، في مجلة الجمعية الآسيوية الألمانية^١ . وقد بحث هذا المستشرق في ديانة العرب قبل الإسلام بحثاً عميقاً ، وهو أول مستشرق درس هذا الموضوع بعد « بوكوك » (Pococke) الذي كان أقدم من درس الوثنية عند العرب دراسة تفصيلية مستقلة في كتابه المطبوع سنة ١٦٤٩ للميلاد^٢ . وقد تطرق (أسيندر) لعبادة النجوم عند العرب وعبادة الأصنام والأماكن المقدسة في جنوبي بلاد العرب وعبادة الأصنام في الحجاز ونجد ، وتوصل إلى أن العرب عبدوا النجوم في بادئ الأمر ، ثم تطورت الفكرة الدينية عندهم ، وبالرغم من ذلك ظلت عقدة عبادة النجوم راسخة في أدمغتهم .

وجاء المستشرق (لودولف كرييل) (Ludolf Krehl) ، فأحيا هذه الدراسة مرة ثانية بكتابه « بحث عن ديانة العرب قبل الإسلام »^٣ ، وطرق موضوعات لم يتمكن من سبقه من البحث فيها . وقد ذهب إلى أن العرب القدماء كانوا من الموحدن في الأصل . غير أنهم تركوا التوحيد بعدئذ ، وعمدوا إلى عبادة النجوم والأصنام فالأحجار والأشجار ، وبذلك انحطت الحالة الدينية عندهم ، وفي القرن السادس تأثروا بالديانة اليهودية والنصرانية في الأماكن التي حدث فيها اتصال بهاتين الديانتين .

وأهم ما ألف في الوثنية عند العرب قبل الإسلام ، كتاب المستشرق الألماني (ولوزن) الذي سماه : (بقايا الوثنية العربية)^٤ . وقد بحث في نواح مختلفة من نواحي الحياة الدينية عند عرب الجاهلية وفي الأصنام ، فجمع ما لم يتمكن من جمعه في هذا الباب أحد من المستشرقين قبله ، واتبع أسلوب المقابلة والنقد في البحث .

هذا ولا بد من الإشارة إلى مجهود عدد من العلماء تخصصوا بالعرييات وعالجوا نواحي عديدة من دراسات الجاهلية ، ومنهم (فرتر هومل) (Fritz Hommel) صاحب المؤلفات والبحوث الكثيرة ، والدراسات القيمة في تاريخ اليمن والعرب

١ Studien ber die vorislamische Religion der Araber, in: Zeitschrift der Deutschen Morgenlaendischen Gesellschaft, 7, 1853.

٢ Specimen Historiae Arabum, Oxford, 1649.

٣ Ueber die Religion der vorislamischen Araber, Leipzig, 1863.

٤ Reste arabischen Heldentums, Berlin, 1887., 2 Ausgabe 1929.

الجنوبيين ، وفي ترجمة الكتابات المعنية والسبئية والحضر موتية والقبتانية والحميرية ، وفي الدراسات اللغوية . وهو في مقدمة من وضع أسس الدراسات العربية الجنوبية ومهد الجادة لمن جاء بعده من المستشرقين . و (رودوكتناكس) (Nikolaus Rhodokanakis)^١ ، وهو صاحب جملة مؤلفات في شرح وحل النصوص العربية الجنوبية ، و (دتلف نيلسن) (Detlef Nielsen) الدانماركي من الباحثين في الكتابات العربية الجنوبية وفي الحضارة العربية ، والتأريخ العربي قبل الإسلام^٢ .

كذلك خصص (موردتمن) (J. H. Mordtmann) و (داؤو هاندش ميلر) (D.H. Mueller) ، و (ميتوخ) (Eugen Mittwoch) ، و (فون فزمن) (von Wissmann) ، و (بيستن) (C.F.L. Beeston) ، و (كونتي روسيني) (C. Conti Rossini) ، و (فنت) (F.V. Winnett) ، و (ركمنس) (C. Ryckmanns) ، و (كروهمن) (A. Grohmann) ، و (ملاكر) (K. Mlaker) ، و (أغناطيوس كويدي) و (وهربرت كريمه) (Herbert Grimme) ، و (أنوليتمن) و (البرايت) ، وغيرهم قسماً من بحوثهم في العرييات الجنوبية ، فساعدوا بذلك على تقديم مادة غنية للمؤرخين والباحثين ، وعلى تحسين معارفنا في اللهجات العربية الجنوبية وقواعدها وفي تأريخ الجاهلية^٣ .

هذا ، ولا بد لي أيضاً من الإشارة الى جهود مستشرقين محدثين قصروا عملهم على البحوث العربية الجنوبية ، وصرفوا وقتهم في دراستها ، وألفوا وكتبوا فيها ، ونشروا بحوثهم في المجلات ، ونشروا نشرأ جديداً نصوصاً سبق أن نشرت ، وبعثوا الحياة في نصوص لم تكن معروفة فعرفت . ومن هؤلاء : (فون وزمن) و (H. von Wissmann) . و (ريكمنس) (J. Ryckmans) ، وهو صاحب

Nikolaus Rhodokanakis: Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft, 2 Hefte, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsuedarabischen, Der Grundsatz der Öffentlichkeit in den Sudarabischen, Urkunden, 1914.

Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Bd., 1, Hamburg, 1927.

٢ للاطلاع على المؤلفات التي تعرضت لاسفار السياح في جزيرة العرب ، يستحسن الرجوع الى الكتب التي الفت في هذا الموضوع باللغات الأوروبية ، ومنها :

Hilprecht: Explorations in Bible Land during the 19th Century, Edinburgh, 1903, Ency. Brita., Vol., 2, P., 169. ff.

بحوث وتحقيقات في نشر الكتابات والتعليق عليها وعلى أيام الملوك . و (البرايت) (W. F. Albright) العالم الآثاري الأمريكي الذي ذكرته قبل قليل . و (الأب جامة) (A. Jamme) الذي رافق البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان ، والخير بقراءة النصوص وبتعيين زمان كتابتها ، وناشر جملة كتابات عثرت عليها البعثة المذكورة . و (مارية هوفنر) (M. Hofner) و (بيرين) (J. Pirenne) و (بيستن) (A.F.L. Beeston) وغيرهم ، ممن جاؤوا ببحوث قيمة جديدة وما زالوا يبحثون في التأريخ الجاهلي^١ .

هذا ، وسوف يكون لدراسة علماء الآثار والآثار التي عثر وسيعثر عليها من ناحية علم الآثار ، وكذلك تطور الخطوط ومقارنة الكتابات بعضها ببعض لمعرفة زمانها وتحليل الآثار ودراستها بالمختبرات وبطرق (الفحص الكربوني) وبما شاكل ذلك من طرق تعدد اليوم حديثة ، شأن كبير في الكشف عن التأريخ الجاهلي ، وتقريبه من الواقع ، وتضييق شقق الخلاف التي نراها بين العلماء في عمر الدول وفي حكم الملوك وأمثال ذلك من أمور هي اليوم في موضع اهتمام الباحثين في تأريخ الجاهلية .

هذا وأودّ أن أشير هنا الى أمر يتعلق بالكتابات الجاهلية ، هو أن غالبية من عاجلها وترجمها اعتمد في الغالب على العبرانية وعلى السريانية في الترجمة ، ولهذا لم يوفقوا في ترجمتهم توفيقاً كبيراً ، وأعتقد أن دراسة اللهجات العربية لقبائل اليمن وبقية العربية الجنوبية وجمع معاني مفرداتها ، تفيد كثيراً في تفسير كتابات المسند وشرحها مثلاً ، لأن كثيراً من هذه المفردات ما زال مستعملاً استعمال القدماء له . ولكن مثل هذه الدراسات لم تتم بشكل علمي منظم منسق حتى الآن وبالأأسف . ورجائي أن يأتي يوم يقوم فيه المتخصصون من العرب بدراسة تلك اللهجات وتثبيتها بصورة علمية ووضع معجمات بألفاظها ، فإن في هذا العمل خدمة كبيرة للتراث العربي القديم .

وقد قام المستشرقون بنصيبهم في كتابة تأريخ الجاهلية ، فهم يستحقون على عملهم هذا كل شكر وثناء ، مهما وقع في دراستهم من قوة وضعف ، وغرض ونية ، فهم قد قاموا بعمل ، وقد أفادونا في عملهم هذا ولو بعض الفائدة ،

El. Wright, The Bible and the Ancient Near East, Essays in Honor of William Foxwell Albright, New York, 1965, PP., 301.

فعلينا ألاّ ننكر فضل الناس ، وإذا كان هناك شيء من خطأ أو نيّة سيئة ،
فعلينا بقع واجب تصحيحه وبيان مواطن سوء النية ، فهم غرباء ، ونحن حملة
هذا التأسيس وأصحابه . وعلينا وحدنا يقمع واجب تدوينه وانتزاعه من باطن
الأرض ، والبحث في كل زاوية ومكان لايجاد مورد جديد نضيفه الى الموارد
الموجودة . وعلى الحكومات العربية واجب إتمام العمل ، وتيسير الوسائل التي
توصل الباحثين الى الأماكن التي يقصدها العلماء وحمائهم ورعايتهم ، وواجب
اعداد طائفة من المنقبين العرب للقيام بهذه المهمة والإنفاق عليهم بسخاء ، وإنشاء
متاحف تحفظ فيها العاديات ، ومنع الناس من التجاوز والتطاول على الأماكن
الآثرية ، ومن أحق بالمحافظة على تراث البلاد من أبنائها ؟.